

ولعلّه أن يكون أثقل والملال إليه أسرع، حتّى يفضي به إلى مزح وفكاهة، وإلى سخف وخرافة، ولست أراه سخفا إذ كنت إنّما استعملت سيرة الحكماء وآداب العلماء» (١: ٩٣، ٩٤).

ثم تأتي الشهادة الكاملة في الحيوان مثلما أتت في البيان والتبيين، فلا يزكّي قوله - وقد رأيناه - «ولكنّي لما عجزت عن نظمه وتنضيده تكلفتم ذكرهم في الجملة»، إلّا اعترافه في الحيوان بالخلل واضطراب اللفظ وسوء التّأليف وتقطيع النّظام، وكلّها من نصّ ما يبوح به عن نفسه كما ستقرأ:

«وقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه، أوّل ذلك العلة الشديدة، والثانية قلة الأعوان، والثالثة طول الكتاب، والرابعة أنّي لو تكلفت كتابا في طوله وعدد الفاظه ومعانيه ثمّ كان من كتب العرض والجوهر والطفرة والتولّد والمداخلة والغرائز والتّماسّ لكان أسهل، وأقصر أيّاما، وأسرع فراغا، لأنّي كنت لا أفرغ فيه إلى تلقط الأشعار، وتتبع الأمثال، واستخراج الآي من القرآن، والحجج من الرواية، مع تفرّق هذه الأمور في الكتب وتباعد ما بين الأشكال، فإن وجدت فيه خلا من اضطراب لفظ ومن سوء تأليف أو من تقطيع نظام ومن وقوع الشيء في غير موضعه فلا تنكر بعد أن صوّرت عندك الحاليّ التي ابتدأت عليها كتابي» (٤: ٢٠٨، ٢٠٩).

\* \* \* \*

على أنّ الظاهرة التي أظننا فيها - لأمر ما - هي التي تبيح لنا تعاملنا مع مادّة كتب الجاحظ ولا سيّما «البيان